للروائي محمد هلال

في روايته «الباب الأخضر» لامس الروائي محمد هلال وجع الإنسان في الطبقات الاجتماعية المسحوقة، ودخل مناطق قلما يتوغل فيها الروائي العربي وينتقدها بالشكل الذي يفضح زيف المُقدسين لما يتعقد بعضهم أنه مقدس «فضلا عن اشتغاله على عنصر المكان الذي شكل مركز ثقل. العمل الروائي «منطقة سيدنا الحسين وما جاورها» مع بعض الاماكن التي شكلت جغرافيات عارضة في سياق الحدث الروائي.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المقصود بإضاءة هذه الرواية «الباب الأخضر» ليس الخطاب الروائي فقد أشبع الخطاب دراسة وتحليلا بل «المبنى الحكائي «لاسيما ونحن في عصر اختلال الموازين ومنها الإبداعية، وتجريب في حقول تشبه حقول الألغام ما أن يدخلها الروائي حتى يكفّر أو يصفّى جسديا ذلك أن تردي وانحطاط القيم يقف خلفه» المستفيد من السلطتين السياسية والدينية» وعوالم الدين بدلا من أن تكون عوامل تنقية للنفس البشرية تحولت لخطابات موبوءة تسعى لتجهيل

الإنسان بحجة «المقدس «الذي يحقق لهؤلاء اهداف يحلمون في تحقيقها بعيدين عن هذه الأجواء، وكذا الأمر بالنسبة للسلطة السياسية.

ولا ننسى أن الدراسات الموضوعاتية المتعلقة بالحكاية هيمنت ردحاً من الزمن على النقد الروائي، ثم انتقلت الهيمنة إلى دراسة «بنية حكائية» أو مجموعة من البنيات في النص الروائي وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه في «الباب الأخضر».

معظم الدراسات المتعلقة بالرواية اعتمدت على ما جاء به الشكلانيون الروس في دراستهم للسرد الروائي فالنقد العربي توجه بثقله إلى الشعر تاركا المساحات الفارغة تزداد في تحليل البنى داخل الروية باعتبار أن للرواية أثر في نقد الظواهر وتصحيح بعضها إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الرواية في جانب منها تشكل منهجا إصلاحيا والذي نجده في معظم الدراسات النقدية التركيز على»بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية» ومنها من تعلق بالسرد الذي يمكن تعريفه هو الذي يجب أن يشتمل على حدث أو خبر سواء كان ذلك من صميم الحقيقة أو من إبداع الخيال على أن يراعي السارد مبدأ إثارة المتعة الفنية عند المتلقي من خلال كيفية العرض أو طريقة تقديم الأحداث التي أساسها يتم التمييز بين نص سردي وآخر وفق الأنماط المعروفة للسرد الذي حددها «توماتشفسكي» بين نمطين هما: «سرد موضوعي وآخر ذاتي.

وما فعله محمد هلال في «الباب الأخضر «فضلا عن ظهور النمطين أعلاه بجلاء أضاف ما يصنف «تجديدا» في الرواية العربية من خلال استدعاء التكنولوجيا الحديثة ليواكب الحدث الروائي العصر ويستهوي المتلقي فقد جعل من جهاز «الحاسوب» محورا مهما من محاور الحكاية بل منطلقا لسرد بقية الأحداث، وهذا يحسب تماما للروائي في ترسيخ مظاهر الحياة وعصرنتها.

فالروائي الذي كتب على حاسوبه الرواية ثم وجد أن ما كتبه قد اختفى تماما مما حمله على التخلص من هذا الجهاز اللعين الذي بدد جهوده وقبل أن يفعل تردد على أمل أن يستيقظ صباحا فيجد المادة قد عادت للظهور دون معرفته بكيفية تفسير اختفائها أو ظهورها .

ولعل الالتفاتة الذكية التي قدم محمد هلال بها نصه الروائي هي ما يستدعي القارئ لمتابعة الأحداث والتي انتظمت على شكل عناوين انتقاها الروائي ليعبر عن معرفته التامة بعلم العنونة وما يضفي على الرواية من أهمية لدى المتلقي.

محاكمة الأبطال للروائي في الليلة العصيبة[1]تلك شكلت المفاتيح الذهبية لمغاليق الأحداث في متن الرواية وأعطت تبريرا للروائي من التوغل بعيدا في الظواهر التي سيعرضها في متن الرواية وهذا ما أبعد

(1) محمد هلال، الباب الأخضر، ط1، دار النخبة، القاهرة، 2019، ص7 – 11

الرواية عن الوقوع بالسرد الفائض إذا صح التعبير أو الفائض اللغوي الذي ينفر القارئ الذكي من المتابعة لان القراء يختلفون في مستوى وعيهم ولا يضيف إليه الفائض اللغوي شيئا.

ففي مفتتح الرواية أطلعنا الراوي على شخصيات متناقضة تماما في الفعل وفي التفكير «الشيخة زغلولة» تلك التي تلخصت حياتها بتجارة المخدرات ومساندتها لوالدها في الأعمال المتعلقة بالبيع والشراء وعقد الصفقات، ثم أنها قاتلة وفقا لما ورد في أحداث الرواية لكنها صلحت وحسنت سيرتها حتى أصبحت من المكرمات في الدنيا والآخرة وفقا لاعتقاد من حولها .

زغلولة ونظرتها التشاؤمية للحياة الزوجية تجعلها مختلفة وتمثل ظاهرة الرفض في الاعتقاد والسلوك على أن هذا التناقض السلوكي ليس نهاية المطاف فلمجرد عودتها لله جعل الله لها مكانة وأكرمها حتى تحولت من «زغلولة المجرمة» الى الشيخة «زغلولة «ولها في السجن مقام يزار ويتبرك به من عرفها.

ولعل أولى الرسائل التي أراد الروائي إيصالها «ولا تقنطوا من رحمة الله «والمعنى يحمل بعدا دينيا فلله ما يشاء في تغير الأحوال شريطة سلامة النوايا، وهو درس من الدروس الحياتية الذي يشير للقواعد الأخلاقية التي تؤسس لسلوكية المرء وتتحكم بتصرفاته وما عملية التحول إلا رهن ظروف الإنسان، تحولت من فضاء الحياة

الواسع الى سجن ضيق فكان الضيق مخرجا لها وتوبة لله مما تقدم من ذنوب. ثم يسرد الراوي حياة زغلولة مع متغيرات المكان فيتحول الى منطقة «سيدنا الحسين «التي تتألف من تركيبة اجتماعية تمثل معظم طبقات المجتمع السلبية والايجابية إلا أن السلبي في معظم الأحيان هو الطيف العريض ويعيش في الأماكن المعتمة ويحتمي بالمقدس هاربا من سلوكه المرفوض في المجتمع السوي.

وهنا طرح في غاية الدقة مفاده «أن ما يحيط بالأماكن المقدسة من السكان في معظمهم من الفئات التي لا علاقة لها بالمقدس أصلا» وهي بطبيعة الحال استوطنت هنا هربا من واقعها المنحط، وأفعالها الشائنة، وبعدها عن القواعد الأخلاقية السائدة في المجتمع، بمعنى هي «طبقة متزندقة تظهر عكس ما تؤمن به «وتلك من الحقائق المسكوت عنها في الخطاب العربي السردي وهذه من الحقائق المرة.

الإبعاد الاجتماعية في «الباب الأخضر»

في كل مجتمع من مجتمعاتنا العربية ثمة خصوصيات موروثة وعادات متناقلة بين الأجيال مصادرها أما أن تكون أسطورية أو دينية أو مستحدثة في عصر من العصور تحولت بعدها لعرف سائد، والمجتمع المصري بطبيعته من المجتمعات المتجددة بحكم عمقه الحضاري وهو من اقدر شعوب المنطقة العربية على الابتكار والتكيف والتجدد بما يواكب حركة الحياة مع ماله من روح كفاحية للتغلب على الظروف.

ذهب بنا الروائي محمد هلال إلى العمق هناك حيث الراسب الأخلاقي في قعر المجتمع والذي ليس بمقدور استطلاعه لاي كان فقط من يتعايش مع مكونات ذلك المكان، واعتقد أن الروائي محمد هلال قد بذل من الوقت والجهد الكثير لفك شيفرات شخصيات غاية في الأهمية تمثل الوسط الهش في المجتمع وهي بطبيعتها وسطا مهيئا للجريمة الاجتماعية بكل أبعادها، وإذا كانت روايات المنفلوطي مصطفى قد عالجت بعض الظواهر التي كانت سائدة آنذاك أمثال المتسول التي شكلت كشفا لبواطن مجتمعات غرائبية داخل المجتمع فإن محمد هلال قد نجح في إضفاء مسحة تحديثية على هذه البيئات التي تعيش في الظل.

لكل مجتمع من مجتمعاتنا فئات تلد وتعيش وتموت داخل عوالمها مبتعدة عن الضوء لكن تأثيرها على بنية المجتمع هو الأشد وقعا ذلك لما تمارس من أساليب غاية في الشيطانية لبلوغ أهدافها وقد جسد الروائي بدقة ومهنية تلك الشخصيات حتى ليعتقد المتلقي أنه كان جزءاً منهم وهذا ما يحسب له، فحين يصف الشخصية كأنه يضعها في دور التحليل وبمبضعه الحاد يشرّحها بطريقة الجرّاح الماهر وصولا لعقدها ومستوى تفكيرها وسلوكها ونفسيتها .

ومن بين الشخصيات التي شكلت تلك العقد: «سكان الأخضر: الذي شكل المحور الرئيس للمكان الذي اشتغلت عليه أحداث الرواية

وسجل من خلاله الروائي كشفا جغرافيا وتحليلا دقيقا للسكان بمعنى أنه اشتغل على عمران المكان وطبائع وعادات سكانه.

ووضع الروائي تحت عنوان «زفة المولد ومقطوع الساقين «ص98 ما يجري في المكان المذكور خلال ليلة المولد الكثير من الأحداث التفصيلية لشخصيات منها ما ظهر في تلك الليلة كمقطوع الساقين والسيدة مستورة التي عبرت عن معاني الإنسانية بتعاونها مع المعاقين والغرباء.

ثم يأتي دور ابن مطيعة الفيومي ص118وما بعدها وهو يسرد أحداث عبدالله الفيومي وجعران العتال مع زغلولة ومستورة وغوص في طابع هذه البيئة التي تتضمن السلبي والايجابي .

ثم ينتقل الحدث الروائي ليسرد لنا تحت عنوان «مطيعة شهيدة العشق ص113 ومابعدها والتي تحولت الى ممارسة التسول لحاجتها لما يسد الرمق وكان من همومها كيف تعيل طفلها وتعلمه .

وجاء عنوان «زلزال ناجي والسيدة السمراء «ص140، وهي توضح العلاقة ما بين ناجي وزوجته السمراء وعمل ناجي في محل العطور .

وثورة بائع العطور وثأر جعران والبوليس الذي كشف عن الكثير من الأسرار التي اكتنفت الأحداث ودور سيدة المجتمع التي أحدثت تغيرا كبيرا في سلوكيات من حولها، ص148 ومابعدها.

كذلك سهام ونهاية الأسطورة ص158 ليبدأ فصل الشخصيات تحاكم مؤلفها، وهنا كرس الروائي عملية «جلد المؤلف» من قبل الأبطال واعتراضهم على الأدوار المناطة بهم وكأن الراوي هو من قدر لتلك الشخصيات طبيعة سلوكها أو بعدها وقربها من الفضيلة وشكل هذا الفصل مغايرة اتسمت أحداثه بالمزج بين الواقع والمتخيل لتنتج لنا حوارات تجسد شعور كل شخصية ودورها في الحياة المقترحة من الروائي فهو الذي رسم ملامح كل شخصية بمشيئته فحملته الشخصيات مسؤولية انحرافها .

الباب الاخصر تمثل كشفا حقيقيا لمجتمع خلف الأضواء كشف عنه الروائي محمد هلال فيه من الدروس الاجتماعية ما يلامس الحقيقة، ولعل الإضاءة اليسيرة على هذه الرواية لا يمثل دراسة تفصيلية لما أفصحت عنه فهي تمثل عملا متكاملا يعكس قدرة الروائي في النفاذ الذكي للمتلقي بأسلوب تجديدي واضح .